

**ملتقى مركز الجزيرة للدراسات حول
العلاقات العربية الروسية
فبراير / شباط 2009**

**العلاقات العربية الروسية
تاريخ وحاضر ومستقبل
السفير خيرى العريدي**

سفير فلسطين السابق في موسكو والحالي في أبو ظبي



تتطوي العلاقات العربية الروسية على أحداث غنية ومنعطفات تاريخية هامة، وترسم ملامح هذه العلاقة عوامل الجغرافيا و التاريخ و الثقافة والسياسة، إضافة إلى العامل الاجتماعي الذي دخل بشكل واضح منذ أكثر من ثلاثين عاما، حيث هناك ما يزيد عن مائة ألف عائلة عربية روسية ترتبط اجتماعياً بعلاقة مصاهرة.

يعود تاريخ هذه العلاقة إلى حقبة الخلافة الإسلامية العباسية، حيث يعتبر المؤرخ والأديب والدبلوماسي أحمد بن فضلان أول من لعب دوراً في هذه العلاقة كمبعوثٍ إلى روسيا من الخليفة العباسي في بغداد سنة 921 م. وعندما ننظر إلى هذه العلاقات، في العصر الحديث، لا بد من التمييز بين المراحل التاريخية المختلفة، حيث كانت العلاقات متغيرة حسبما تفرضه طبيعة الوضع السياسي القائم لدى الجانبين في كل مرحلة، غير أن روسيا كانت دائماً ما تضع مصلحتها فوق أي اعتبار حين تقرر سياستها الخارجية، سواءً أكان ذلك في علاقتها مع العرب أم مع غيرهم.

المرحلة القيصرية

لعبت الجغرافيا دوراً هاماً في رسم السياسة الروسية منذ نشأتها كدولة إمبراطورية كبرى في عهد بطرس الأكبر عام 1721، حيث سعت روسيا دائماً وفي كل المراحل للدخول إلى المياه الدافئة في البحر الأبيض المتوسط، ومن أجل ذلك خاضت روسيا الحروب وأقامت العلاقات مع تركيا حيث كان يخضع العالم العربي للإمبراطورية العثمانية، وتم افتتاح القنصليات الروسية في بيروت والإسكندرية والقدس وبغداد والبصرة، وفي فلسطين نشطت الجمعية الإمبراطورية الروسية الأرثوذكسية التي تأسست عام 1882، وتملكت مئات الممتلكات من الأراضي والكنائس وتم افتتاح ما يزيد عن 100 مدرسة روسية، وافتتحت الإرسالية الروسية الأرثوذكسية سنة 1849.

ولكن في تلك الحقبة كان العرب ينظرون إلى روسيا القيصرية كجزء من العالم الغربي، ويبدو أن هذه النظرة كانت تروق للقيصرية الذين أحبوا أن ينظر إليهم هكذا، وانتهت المرحلة القيصرية في روسيا بعد أن ساهمت في تحرير شعوب البلقان دون أن يكون لها دور في تحرير الشعوب العربية.

المرحلة السوفيتية

غيرت هذه المرحلة السياسة الخارجية القديمة، وحاول الاتحاد السوفيتي التوجه نحو شعوب الشرق العربي، خاصةً عندما أبرمت بريطانيا وفرنسا اتفاقية سايكس بيكو، ونشرت نصوصها ليفتضح أمر سياسة دولتي الاستعمار وتتكشف نواياهما نحو تقسيم بلاد الشام وتقاسمها فيما بينهما، وكذلك رفعت ثورة أكتوبر/ تشرين الأول شعارات حق الشعوب في تقرير مصيرها كما وجهت نداءات لتحرير الجزائر وتونس وسوريا وغيرها. ولكن في تلك المرحلة التاريخية كان الاتحاد السوفيتي يعتمد في علاقاته مع العرب على الأحزاب الشيوعية المكونة حديثاً بدون خبرة أو تأثير، كبديل للطوائف الأرثوذكسية التي كانت تعتمد عليها روسيا أيام القيصرية.

وكذلك لم يكن لدى الحركات الوطنية في العالم العربي الجرأة للاتصال والتعاون مع الثورة الروسية لما كانت توصف بالإلحاد.

كانت العلاقات العربية السوفيتية متقلبة ومختلفة من سنة إلى أخرى، تؤثر فيها عوامل كثيرة أهمها المصالح الخاصة ومتطلبات مواجهة الفاشية والنازية، وعندما انتصر الاتحاد السوفيتي لقي تأييداً واسعاً من الشعوب العربية.

وفي أواخر الأربعينيات، عندما بدأت الحرب الباردة، كانت السياسة السوفيتية تسعى لإخراج بريطانيا من المنطقة ومنع حلول أمريكا مكانها، ورفض السوفيت نظرية الفراغ، وهذه السياسة السوفيتية أيضاً أكسبت العلاقة مزيداً من الزخم الذي ما لبث الاتحاد السوفيتي أن خسر الكثير منه في الأوساط العربية لدى اعترافه بدولة إسرائيل، والسماح بالهجرة اليهودية إليها. ولم يكن للسوفيت علاقة جيدة مع العالم العربي، لوقوع معظمه تحت الانتداب البريطاني أو في دائرة النفوذ البريطاني بينما كان لديهم انطباع أن إسرائيل ستكون دولة اشتراكية نظراً لوجود حزب العمل وقوى اشتراكية أخرى وإن إسرائيل تقوم الوجود البريطاني في المنطقة.

في كل الأحوال ما كان من الممكن أن تتحسن العلاقات العربية السوفيتية أيام ستالين، حيث كانت الأولويات السوفيتية متجهة إلى أوروبا وإعادة البناء الداخلي وتعزيز الوضع في أوروبا الشرقية، ولم يكن لدى السوفيت ذلك الوقت الاهتمام والمعرفة الجيدة بالأوضاع العربية وطبيعة المجتمع العربي، واعتماد السوفيت على الأحزاب الشيوعية العربية التي كانت تمثل السوفيت في العالم العربي ولم تكن تمثل العرب لدى السوفيت إضافة إلى عدم حصول الدول العربية على استقلالها وحريتها.

فترة ما بعد ستالين:

حدثت قفزة في العلاقات العربية الروسية سنة 1955، وتم تزويد مصر وسوريا بالسلح، وتم دعم الحركات الوطنية العربية ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي، وبعد تأميم قناة السويس اتضح التحسن النوعي في العلاقات، وتجلّى ذلك في الموقف السوفيتي ضد العدوان الثلاثي على مصر، حيث كان مؤثراً وقوياً مهدداً باستخدام القوة إذا لم تسحب بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قواتهم من الأراضي المصرية، وفي تلك الفترة بدأت السياسة السوفيتية تلمح إلى أن كيان إسرائيل أصبح موضع شك بعد أن تبين أنها أداة للإمبريالية، وارتفعت أسهم الاتحاد السوفيتي في العالم العربي.

على عكس قوى الاستعمار لم يكن الاتحاد السوفيتي متورطاً في نزاع مع المصالح العربية، بل تغيرت نظرته للوحدة العربية حيث أصبحت محط تأييد من قبل موسكو.

وتطورت العلاقات الاقتصادية وزادت الصادرات من الدول العربية إلى الاتحاد السوفيتي، حيث كانت نصف صادرات مصر تذهب للأراضي السوفيتية، كما تلقت مصر والعراق وسوريا مساعدات مالية كبيرة، وأقيم السدّ العالي في مصر، وتم بناء مصانع الحديد والصلب والإسمنت، وتطوير وسائل النقل والمساعدات العسكرية، وتم إعداد آلاف الكادرات الفنية.

الدور السوفيتي في الحرب مع إسرائيل عام 1967

حاولت موسكو وقف اندفاع مصر نحو الحرب وتعهّدت لها إذا لم تقم بالضربة الأولى بأن تلقى تأييداً سوفيتياً كاملاً، وأن لا يُسمح لإسرائيل بالاحتفاظ بأي مكاسب على الأرض إذا تمكنت من الحصول

على ذلك. ولكن بعد نهاية الحرب بالهزيمة المعروفة، واحتلال إسرائيل للأراضي العربية، تلك الهزيمة التي ما زال العالم العربي يدفع ثمنها حتى الآن، لم يقم الاتحاد السوفيتي بالوفاء بتعهداته مما وضع علامة استفهام كبيرة على هذا الموقف، الذي يبدو أن الاتحاد السوفيتي اتخذته على خلفية ظن البعض في القيادة السوفيتية بأن بقاء الحال بعد الحرب على ذلك النحو سيجعل الدول العربية في حاجة دائمة للدعم السوفيتي، واستمرار تزويد مصر بالسلاح والخبراء والمساعدات الأخرى.

في زمن الرئيس أنور السادات ساءت العلاقات مع موسكو رغم الدعم السوفيتي الكبير لمصر، وإرسالها جسراً جويّاً في حرب تشرين، إلا أن السادات طرد الخبراء السوفيت وأقام تحالفاً مع الولايات المتحدة الأمريكية، وقد كان خروج السوفيت من مصر حلماً أمريكياً تحقق مجاناً رغم إمكانية أن يكون له ثمن كبير في ذلك الوقت.

أما علاقات موسكو مع منظمة التحرير الفلسطينية فتطورت بعد حرب تشرين عندما أوضحت منظمة التحرير نهجها باتجاه التسوية السياسية، واعترف الاتحاد السوفيتي بها، وقدم مساعدات كبيرة للفلسطينيين بما فيها تدريب كوادر عسكرية وقبول الفلسطينيين في الجامعات والمعاهد، واستمر هذا حتى الآن حيث بلغ عدد خريج من كليات الطب والهندسة ومختلف العلوم لغاية الآن أكثر من ثلاثين ألف. وأيدت موسكو الحقوق الفلسطينية في المحافل الدولية وصدرت الكثير من القرارات في الأمم المتحدة لصالح فلسطين بفضل دعم الاتحاد السوفيتي.

أما العلاقات السوفيتي الخليجية، فتأخر تطورها لأسباب عدة، ولكل دولة أسبابها ولكن قيام الثورة في إيران، وحرب الخليج بين العراق وإيران فيما بعد، ومن ثم الاجتياح السوفيتي لأفغانستان، كل ذلك خلق ظروفاً جديدة ومعقدة، حيث تدفقت الأموال والمجاهدون من كل الجنسيات العربية وبدا الدعم العربي للجهاد ضد الوجود السوفيتي في أفغانستان كبيراً، وكان الدعم يقدم بإشراف من الولايات المتحدة الأمريكية التي وجدت فرصة سانحة لشن حرب بالوكالة تساهم في إضعاف الاتحاد السوفيتي، وكان لذلك أثر عميق شكل صدمة كبيرة لكل المحللين: لماذا يندفع هذا العدد الكبير من الشباب العربي باتجاه أفغانستان ولم يتجهوا نحو القدس وأعتقد أن موضوع أفغانستان كان مؤلماً للعلاقات العربية الروسية.

اجتياح إسرائيل للبنان عام 1982

اجتاحت إسرائيل لبنان في العام 1982 وكانت القيادة السوفيتية غائبة عن الأحداث، وتعرضت السفارة السوفيتية في بيروت للقصف أكثر من مرة وكان هناك إصابات وتعرضت العائلات السوفيتية التي تم إجلاؤها عن بيروت إلى الاستقزاز من طرف البحرية الإسرائيلية ولم يكن هناك أي ردة فعل تذكر.

وبدأت العلاقات العربية السوفيتية تتعرض للإهمال مع استلام ميخائيل غورباتشوف لمقاليد الحكم، وهو الذي تطلع إلى الغرب، وتنازلت الأحداث حيث احتلال الكويت من قبل العراق وانفق غورباتشوف مع بوش الأب على كل ما تلا ذلك، وعُقد مؤتمر مدريد للسلام حيث كان الحضور السوفيتي شكلياً وغير فعال، وانهار حلف وارسو وبعده انهار الاتحاد السوفيتي وكانت نهاية الحرب الباردة.

الفترة الانتقالية من الاتحاد السوفيتي إلى روسيا

خلال الفترة الانتقالية بين غورباتشوف واستلام الرئيس يلتسن بعد انتهاء المرحلة السوفيتية، جرت عملية فك ارتباط لقضايا دول العالم الثالث عن العلاقة السوفيتية الأمريكية والحرب الباردة، وأخذ الجميع يسعى إلى علاقات مع أمريكا والغرب، وتشكل عالم القطب الواحد والهيمنة الأمريكية، وبدأت عملية السلام في الشرق الأوسط خاضعة لهذه الهيمنة وتم في مدريد نفسها تغيير الخطاب الروسي الذي أعد في موسكو بخطاب آخر وبمضمون ضعيف جدا. وتحول الاتحاد السوفيتي إلى شريك صغير للولايات المتحدة ومن بعده روسيا الاتحادية في فترة الرئيس يلتسن، وقد أثر ذلك على العلاقات الدولية للعالم العربي وأصبح هامش المناورة ضيقاً أمامها.

فترة الرئيس يلتسن

تعد فترة الرئيس يلتسن من أصعب الفترات التي مرت بها روسيا حيث تم تسريب الأموال الروسية إلى الخارج وارتفعت روسيا للمساعدات الخارجية وتم بيع ممتلكات الدولة بأسعار بخسة، وتوقفت الصناعات وقدم الرئيس يلتسن تنازلات كبيرة سياسية وعسكرية مما أضعف روسيا هذا الضعف الذي انعكس على علاقاتها الخارجية ومنها علاقاتها مع العالم العربي خاصة مع زيادة نفوذ اليهود في السياسة الروسية.

فترة الرئيس فلاديمير بوتين:

أدرك الرئيس بوتين في البداية المخاطر التي تحيط بروسيا وكان على يقين أن الغرب لم يكتف بانهيار المنظومة الاشتراكية ولا بتفكك الاتحاد السوفيتي ولكن يريد أن يصل إلى تفكك روسيا نفسها، من هنا كانت العودة إلى نظرية القائلة: إما أن تكون روسيا دولة عظمى أو لا تكون دولة، وإن الجغرافيا دائما تحدد سياسة الدولة، وأخذ الرئيس بوتين يعالج الأمور بهدوء ليتغلب على الأزمة الاقتصادية الخانقة، وبدأ بوقف تسريب أموال روسيا للخارج وكف أيدي العابثين بمصالح روسيا، كما تأكد من أن الانزواء في الداخل لا يحل مشاكل روسيا الاقتصادية فبدأ باستعادة العلاقات الخارجية لروسيا ومنها علاقاتها مع العالم العربي وإعادة نفوذ روسيا في دول المحيط وأعاد الهيبة للجيش الروسي وأخذ يعمل على عرقلة برامج الحلف الأطلسي وتوسعه نحو الشرق.

وتسعى روسيا لدور فعال في حل الصراع العربي الإسرائيلي، وهي ترى أن الحل بحاجة إلى جهد جماعي ولا يمكن انفراد أي جهة بذلك، وهي مع قيام دولة فلسطينية مستقلة على الأرض التي احتلت عام 1967.

وقد استعادت روسيا جزءا كبيرا من علاقاتها مع العالم العربي بعد تسوية الديون الروسية المستحقة على العرب وإعنائهم من معظم الديون، ونعتقد أن روسيا وصلت إلى قناعة في عهد الرئيس بوتين أنه من شروط قيام علاقات روسية عربية متجددة في القرن الحالي، هو عودة روسيا دولة عظمى وعدم السماح باستمرار عالم أحادي القطب والسعي الجدي لتحقيق ذلك، حيث أن قيام نظام عالمي متعدد الأقطاب يوفر الأمن والاستقرار للعالم. كذلك على الدول العربية أن تطور علاقاتها مع روسيا دون الالتفات إلى مدى رضى الولايات المتحدة على هذه العلاقات، وهناك عوامل عديدة تدعو لتعزيز وتقوية العلاقات العربية الروسية.

عوامل تعزيز العلاقات العربية الروسية

- تحاول روسيا أن تتعامل مع العلم العربي ككيان إقليمي، مختلفة بذلك عن دول كبرى أخرى ترفض مفهوم العالم العربي.
- روسيا والعالم العربي جيران، ويجب أن يكون للعامل الجغرافي تأثير إيجابي في تعزيز العلاقات.
- التركيبة الاجتماعية للشعوب الروسية هي مزيج من الحضارتين المسيحية الأرثوذكسية والحضارة الإسلامية، والحضارتان جاءتا إلى روسيا من العالم العربي.
- في العالم العربي مئات الآلاف تخرجوا من المعاهد والجامعات الروسية وهم يشكلون رابطاً وحافزاً على علاقات طيبة.
- العلاقات الروسية العربية لم تتضمن حروباً أو صراعات في التاريخ، كما لا توجد أي إشكاليات في هذه العلاقة في الوقت الحاضر.
- روسيا قامت بخطوات مهمة باتجاه العالم العربي، ويقول الرئيس بوتين الذي زار معظم الدول العربية إن علاقات روسيا مع العالم العربي إما جيدة أو جيدة جداً.

العالم العربي ينتظر دوراً روسيا أكثر أهمية في عملية السلام وحل القضية الفلسطينية، وهي العامل المحوري في العلاقات العربية الدولية، والدور الروسي يجب أن يكون مميزاً عن الدور الأمريكي والغربي المؤيد بشكل كبير لإسرائيل وعدوانها على العالم العربي.

هناك لوبي يهودي في روسيا، تشكل في عهد الرئيس يلتسن ويلعب دوراً كبيراً في النشاط المالي والإعلامي في روسيا، ويحظى بدعم إسرائيلي وأمريكي، كذلك تم تأسيس المؤتمر اليهودي في روسيا ونشاطه بارز، وتم تأسيس مدارس ومؤسسات علمية يهودية أخرى. وقد لوحظ دور اللوبي اليهودي في حماية إسرائيل من أي عقوبات روسية بعد الحرب التي بدأتها جورجيا في جنوب أوسيتيا والتي تلقت مساعدات مهمة من إسرائيل وأكرانيا، حيث كان التهديد الروسي بمعاينة كل من قدم مساعدات لجورجيا، ولكن لم يكن هناك أي إجراء ضد إسرائيل التي استطاع اللوبي اليهودي في روسيا أن يقدم لها الحماية، بينما اتخذت عقوبات ضد أوكرانيا.

من جهة أخرى أعتقد أنه ليس من الحكمة أن يتم البناء في الدبلوماسية الروسية على الناطقين بالروسية، المهاجرين السوفيت في إسرائيل، فهم مجموعات فاشية متطرفة ليس لروسيا أن تفخر بهم ومواقفهم في غاية السوء ولا يكون أي احترام لروسيا.

لقد تحكمت في تاريخ العلاقات الروسية العربية عوامل ومتغيرات كثيرة، وكان فيها على مدى العصور علامات مضيئة وإيجابية كثيرة، رغم أنه قد شابها بعض السلبيات، ولكن هناك أسس متوفرة لعلاقات روسية عربية طيبة وتعاون واسع النطاق على كل المستويات في الحاضر والمستقبل.